قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

الإباضية بالقيروان في العصر الوسيط من خلال تراجم بعض أعلامها

The Ibadi at Kairouan in the Middle Age through some biographies of its scientists

د. صالح الزرويل [1] *
[1] كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة غرداية، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الاسلامية، الجزائر.

Key words:
Ibadites
Kairouan
Sheikhs
The Middle Age
Science ring.

Abstract

Kairouan represented the first capital to incubate and sponsor Islamic sects coming from the Islamic East since the beginning of the 2nd century AH / 8th century AD. Scholars and students flocked to the gates of its mosques to seek knowledge from its luminaries, and it was known for the early spread of the Ibadi and Safarian schools of thought, the latter of which did not last long because of its extremism and departure from the teachings of Islam. And he took Sijilmassa in far Maghreb. While the Ibadis were a prominent imprint in the city, despite the external tendency that they were accused of, they imposed their ideas and beliefs on the general public for a period of time, before the establishment of the Rustumid state. The article comes according to historical, descriptive and inductive approach to discuss the spread of the Ibadhi sect in Kairouan and its surroundings since the 2nd century AH/8AD, by mentioning their most important sheikhs and scholars and their scientific role in it.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال :2023-08-19
القبول : 2023-12-19
الكلمات المفتاحية:
الإباضية
القيروان
المشايخ
العصر الوسيط
حلقة العلم.

ملخص

مثّلت القيروان أول عاصمة حاضنة وراعية للمذاهب الاسلامية القادمة من المشرق الاسلامي منذ مطلع القرن2هـ/8م، فتزاحم العلماء والطلبة على أبواب جوامعها لطلب العلم من مضانه، وعرفت انتشارا للمذهبين الإباضي والصفري في وقت مبكر، هذا الأخير الذي لم يدم طويلا فيها بسبب غلوه وخروجه عن تعاليم الاسلام، واتخذ من سجلماسة بالمغرب الأقصى نقطة ارتكازه، في حين أن للإباضية بصمة بارزة في المدينة، ورغم نزعتهم الخارجية إلا أنهم فرضوا أفكارهم واعتقاداتهم على عامة الناس ردحا من الزمن، قبل تأسيس الدولة الرستمية. والمقال يأتي وفق منهج تاريخي ووصفي واستقرائي للبحث في دخول وانتشار المذهب الإباضي بالمغرب الأدنى وبالقيروان وأحوازها بخاصة منذ ق2هـ/8م، من خلال ذكر أهم مشايخهم وعلمائهم المستقرين بها او المنتقلين إليها مؤقتا لتلقي العلم، والذين أسهموا بشكل فعّال في الحياة الدينية والثقافية وكان لهم دورهم العلمي تمثل في حضورهم لحلق العلم وتصدّرهم لها في بعض الفترات، رغم قلة المعلومات عنهم في المصادر والمراجع.

* Corresponding author at : Ghardaia University, ALGERIA.
Email : s.zerouil.@univ-ghardaia.dz

1. مقدمة

عرف بلاد المغرب انتشارا لمختلف التيارات المذهبية والفكرية، التي أسهمت في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية والدينية بالمنطقة، رغم الصراعات التي نشبت بينها، وكانت في الأغلب ذات دوافع سياسية، فقد عرفت تشكل حدود جغرافية سياسية، تجاوزتها حركة علمية ثقافية نشيطة في مختلف انواع الفنون والعلوم، وكان المذهب الإباضي من أهم تلك المذاهب التي انتشرت ببلاد المغرب منذ مطلع القرن الثاني الهجري، السابع للميلاد. وكان لأتباعه وجود في مختلف مدن وقرى إفريقية الرئيسة منها والثانوية، جنبا إلى جنب مع باقي التيارات والمذاهب اللاحقة.

أردنا في هذه الورقة الإجابة عن التساؤلات التالية:

-ما هي الإرهاصات السياسية لانتشار المذهب الإباضي بإفريقية.

-فيم تمثلت أنماط الوجود العلمي للإباضية بالقيروان وما الخلفيات التاريخية التي مكنتهم من ذلك.

-من هم أهم شيوخه في القيروان وأحوازها، وما هي آثارهم فيها فترة العصر الوسيط.

-فيم تمثلت ردود الأفعال المختلفة السياسية والمذهبية السنية.

قليلة هي تلك الدراسات التي تناولت موضوع النشاط العلمي للإباضية فترة وجودهم بالقيروان وإن لم أقل نادرة، إذ نجد بعض الإشارات عن إباضية القيروان في أطاريح ورسائل اعتمد مؤلفوها على كتب السير الإباضية بخاصة، وهي تتحدث عن الجانب السياسي لهم في طرابلس والقيروان وإفريقية عموما قبل تأسيس الإمامة الرستمية في تيهرت بالمغرب الأوسط، دون التطرق إلى حياتهم العلمية والثقافية، ومختلف الجوانب الأخرى لهم فيها كالاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

لذلك فهدفنا هو التعريف بحلقة هامة من حلقات تاريخ القيروان في شقه العلمي، وإنصاف فئة هامة سكنت القيروان لمدة ليست باليسيرة، وكان لها الأثر البالغ في مجالس العلم وحلقه، اتضح في المؤلفات والمناظرات العلمية التي كانت تعقد بين مشايخها ومشايخ القيروان من غيرهم في جوامعها ودور العلم بها.

كان المنهج التاريخي والوصفي لتتبع الأحداث السياسية والتاريخية، إلى جانب منهج تحليلي لأهم النصوص الواردة في المصادر، بغية الوقوف على الحياة العلمية للإباضيين بالقيروان وأحوازها، من خلال تراجم أهم أعلامهم وفهم العلاقة القائمة بين الإباضية وغيرها من المذاهب.

2. بربر المغرب والخلافة الأموية والعباسية

لم يكد ينتهي القرن الأول الهجري، السابع للميلاد حتى أضحت بلاد المغرب مسلمة، وكانت جحافل المسلمين على مشارف الأندلس تتوق لضمّها إلى أرض الاسلام، وقد مثّلت إفريقية التي يعنون بها القيروان (**القيرواني**، 1993، **ص** 29) قاعدة عسكرية وسياسية لجيوشهم، ثم صارت بعد ذلك منارة علمية تبسط إشعاعها مشرقا ومغربا، إذ أسهم الإباضية وغيرهم في حياتها العلمية والثقافية فترة الأغالبة(184-292ه/800-909م) والرستميين، وعجّت بالعلماء وطلبة العلم الذين قصدوها من كل حدب وصوب، ولم يكن التمذهب الديني أو السياسي أمام طلبة العلم من شتى العقائد والأفكار والتوجهات، ليكون عائقا للتنقل والارتحال في سبيل الاستزادة من العلوم والمعارف في كبريات حواضر المغرب آنذاك، وبالقيروان وتيهرت بخاصة.

2. 1. المذهب الإباضي بين أحضان جغرافية وجنس جديدين

1.1.2. جغرافيا

يبدو أن دعاء عقبة بن نافع لمدينة القيروان مع وجوه أصحابه وكبار العسكر غداة تأسيسها؛ كفيل بأن تصبح منارة دينية إسلامية، يشع نورها فتستضيء به أوربا وإفريقيا، فقد قال في دعائه: "اللهم املأها علما وفقها، واعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلا على من كفر، وأعز بها الاسلام، وامنعها جبابرة الأرض" (**المالكي**، 1994، **ص** 10/1)، فكانت كذلك زمنا طويلا، تجمع بين أسوار مساجدها ومكتباتها طالب العلم، والعابد الزاهد، والجندي المسبل، والحاكم المحنك.

وصفها البكري بقوله: "ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديد، في الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية وفي القبلة بحر سفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي، بينها وبينه مسيرة يوم، وبينها وبين الجبل مسيرة يوم، وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم، وشرقيّها سبخة ملح عظيم طيّب نظيف، وسائر جوانبها أرضون طيّبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الدّرارة يصاب فيه في السنة الخصبة للحبّة مائة، وهواء هذا الجانب طيّب صحيح" (**البكري**، **ص** 575/2)، كما استرسل الإدريسي في ذكر محاسنها، قائلا: "أم أمصار وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا، واكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأتقنها بناء، وأنفسها هِمما، وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة، وأنماها ربحا، والغالب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد، والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم، والتفنن في محاسن العلم، والميل إلى القصد" (**الإدريسي**، 2002، **ص** 110).(انظر الخريطة في الملحق)

لم يكن اختيار الاباضية أرض القيروان عاصمة لإمامتهم لهذه الصفات الجغرافية والمناخية فحسب؛ بل ينم ذلك عن عمق تفكير عسكري واستراتيجي وعلمي للمنطقة، فموقع المدينة المميز والذي لا يبعد كثيرا عن البحر من الشرق والشمال، إذ إن البر بينهما يحمي المدينة من غزوات الأعداء القادمين من البحر خاصة منهم النصارى النورمانديين، كما أن موقعها في مفترق الطرق الرابط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب حيث عبور قوافل التجارة إلى دواخل الصحراء وبلاد السودان،

أو المتجهة صوب المراسي على البحر المتوسط والمتوجهة نحو صقلية وأوروبا من جهة وإلى الأندلس من جهة أخرى، ولا ننسى الدور العلمي الذي تقوم به منافسة ترياتها من فاس وتلمسان وقرطبة، فقد كانت قبلة ومقصد طلاب العلم من شتى بقاع أرض الإسلام مشرقا ومغربا، وأنشئت بها أهم المؤسسات التعليمية مثل جامع عقبة ومسجد الخميس ومسجد السبت زيادة على المجالس الخاصة، واستمرّ عطاؤها مدة حوالي أربعة قرون من سنة 50ه إلى تاريخ سقوطها سنة 449ه، أنجبت خلالها فطاحل المشايخ والعلماء في شتى الفنون والعلوم ومن مختلف المذاهب والفرق (**العبيدي**، 1994، **ص** 286).

وقد انتشر المذهب الإباضي بين ساكنة القيروان، عامة الناس وخاصتهم، بعد زوال الصفرية منها، فوجدوا تربة خصبة جغرافية وعلمية، احتضنتهم جوامعها ومدراسها والتف حولهم طلبة العلم القيروانيين وغيرهم، بعد أن ولى عليها الإمام أبو الخطاب بن السمح عبد الرحمن بن رستم، لكن ذلك لم يدم طويلا.

2.1.2.**سياسيا**

عانت بلاد المغرب الكثير من الفتن والخصومات إذ انتقل النزاع بين القيسية واليمنية إلى بلاد المغرب (**محمود**، 1985، **ص** 30) وتسبب في المنافسات والخصومات والانتقامات، وفرض جبايات من طرف العمال الأمويين على البربر، والظاهر أن تسامح الخليفة عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/717-719م)، ومحاولة مصالحة الخوارج كان هدنة للخوارج لاستعادة قواهم وانتشارهم ببلاد المغرب (الباروني، 1987، ص 35)، ولكن بانتهاء فترة حكم عمر بن عبد العزيز؛ أخذ الشعور بالعصبية عند البربر في الظهور، لما لحقهم من ظلم على أيدي بعض الحكام الجائرين مثل: يزيد بن أبي مسلم(101-102هـ/719-720م)، الذي عُيّن من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك(102-103هـ/720-723م)، والذي أراد أن يقوم بإحياء ذكرى الحجاج بن يوسف الثقفي ومسيرته في المغرب، ففرض الجزية على من أسلم من البربر وادعى أن بلادهم فتحت عنوة لا صلحا(**خديجة**، 2012، **ص** 68).

كما كان شُغل بشر بن صفوان(102-109هـ/720-727م) الشاغل جمع الأموال من البربر وإرسالها كهدايا إلى بيت الخلافة(بن عميرة، 1981، صفحة 155)، ثم جاء عبد الرحمن السلمي(110-114هـ/728-732م) الذي أسرف في غزو البربر وسبي نسائهم، فعزله الخليفة هشام بن عبد الملك لاستبداده بالبربر واضطهاده لعمال بشر بن صفوان، وولّى عبد الله بن الحبحاب(116-123هـ/728-732م)، ولم يكن أحسن حالا من سابقيه، بل عانى البربر طوال حكمه من الظلم والشدة والطغيان (الرقيق، 1968، ص 106)، هذا غيض من فيض الظلم الذي تعرّض له البربر أصحاب الأرض من جور بعض الولاة والعمال الذين تداولوا على حكم ولاية إفريقية (**خديجة**، 2012، **ص** 70).

ولهذه الأسباب كان البحث عن دعوة دينية يلتفون حولها ضرورة ملحة عند الإباضية والصفرية، وغيرها من الفرق للوقوف في وجه القوى السياسية التي فرضها العرب، فوجد الإباضية المغرب أرضا بكرا وخصبة لنشر مذهبهم مستغلين سوء تصرف بعض عمال الدولة الأموية مع البربر وعدم مساواتهم بالعرب، فنشأت حركات المعارضة الإباضية والصفرية، وبهذا كان ظهور تلك المذاهب من إباضية وصفرية سريعا (**مؤنس**، **د.ت**، **ص** 394)، واستطاعا أن يحققا نجاحا باهرا في نشرهما، إذ اعتنق البربر المذهبين بكثرة وأخلصوا لهما، ووجدوا في مبادئهما ما يطابق ميولهم وعقليتهم (**بحاز**، 2015، **صفحة** 62)، خاصة وأنَ مبادئهم ترتكز على الشورى ومقاومة الظَلم ومحاربته، لأن الإسلام لا يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتَقوى (**اسماوي**، 1987، **ص** 162).

3.1.2.**ثقافيا**

ارتبطت نشأة المذهب الإباضي بالمغرب الإسلامي ارتباطا وثيقا بتاريخ ظهوره في المشرق وامتداده له (**اسماوي**، 1987، **ص** 160)، فانشقاق المحور الإسلامي الأصلي في المشرق قد انتقل إلى بلاد المغرب ونقل معه جميع تناقضاته وصراعاته (**غوردو**، 2011، **ص** 77)، فالأحداث التي عاشها في المشرق تعتبر سببا في انتشاره في المغرب بحيث تلاءم ذلك مع الأحداث بالمغرب والتي أصبحت مناخا ملائما له، فالاضطهاد الذي سلّطه الأمويون على معارضيهم وعلى الخوارج خاصة، ولاسيما على يد الحجاج بن يوسف الثقفي(40-95هـ/660-714م)، جعل علماء وأئمة الإباضية يفكرون في نشر دعوتهم خارج المنطقة حتى لا يندثر مذهبهم فيها، فضلا عما اتخذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة من تنظيم المجالس العلمية السرية. (**محمود**، 1985، **ص** 28)

وكان مع حملة العلم الخمسة المغاربة الذين انتقلوا إلى البصرة سنة135ه لتلقي العلم على يديه وهم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وعبد الرحمن بن رستم الفارسي وعاصم السدراتي وأبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي و أبو داود القبلّي النفزاوي، والذين اختلفت انتماءاتهم العرقية والقبلية، إلا أن مقصدهم وهدفهم كان واحدا، كما كان لهم فضل نقل العلم والمذهب الإباضي من المشرق صوب المغرب.

كان الحضور الإباضي الصفري بالقيروان على الأرجح، أواخر القرن الأول وأوائل الثاني الهجري عن طريق داعيين هما أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس(ت105ه)، الذي دعا إلى الصفرية، وقيل بأن أصله من بربر إفريقية، وقد أقام بالقيروان حيث كان يجلس في مؤخر المسجد غربي المنارة ليعلّم الناس، فبثّ فيهم علما كثيرا وخاصة تفسير القرآن الكريم الذي تلقاه عن مولاه، وسلمة بن سعد الذي دعا إلى الإباضية. (**محمود**، 1985، **ص** 36).

كما انتشر المذهب المعتزلي الواصلي بإفريقية عن طريق واصل بن عطاء(ت131ه) الذي أنفذ إليها عبد الله بن الحارث

خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن2ه/8م (**الهنتاتي**، 2000، **ص** 181)، كما كانت لهم مدرسة نشطة بالقيروان إلى جانب الصفرية والإباضية. أما المذاهب الأخرى السنية منها بالأخص، فلم تعرف طريقها نحو القيروان سوى في فترة لاحقة، فالمذهب الحنفي قد عرف انتشارا بين أوساط القيروانيين وفي عموم إفريقية منذ حوالي النصف الأول من القرن3ه/9م، في حين أن المذهب الشافعي قد كان وجوده محتشما فقد ظهر في منتصف القرن3ه/9م، إلى جانب مذهب مالك، كما عرف الشيعة نفوذا كبيرا خاصة عند زوال الأغالبة وظهور الفاطميين الإسماعليين خلال العقد الأخير من القرن3ه/9م.

ويبدو أن البعثتين قد كانتا متزامنتان، أي بعثة الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى المغرب والتي تكوّنت من: الأمير إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي(ت132ه) الذي ولاّه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة99-100هـ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي(ت128هـ)، وأبو سعيد جُعثُل بن عاهان الرُّعيني (ت حوالي115هـ)، وحيان بن أبي جبلة القرشي(ت125هـ)، وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي، وطلق بن جعبان الفارسي، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي(ت113ه)، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي(ت100هـ)، ووهب بن حي المعافري، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري (ت107ه) (**الدباغ**، 1968، **ص ص** 200ـ223)، وبعثة سلمة بن سعد من الطلبة إلى المشرق، وقد أسهمتا في ترسيخ الإسلام واللغة العربية بين بربر إفريقية، رغم اختلاف التوجهات الفكرية والعقدية بينهما.

بعد عودة حملة العلم الخمسة من البصرة استطاع كل من أبي الخطاب المعافري وعبد الرحمن بن رستم من تخليص القيروان من استبداد الصفرية، كما استنجد أهلها عن طريق قاضياها أبو كريب جميل بن كريب المعافري، ثم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الذي ترأس وفدا من علماء القيروان يطلب النجدة من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور(132-158ه) (**أبو العرب**، 1968، **ص** 86)، واستنتج الهنتاتي أن ذلك مؤشر على ميل أهل القيروان إلى الاتجاه السني، لكن الوقائع تثبت بأن الفوضى كانت صادرة من أتباع المذهب الصفري، فالمعلوم أن عبد الرحمن بن رستم قد انتقل إلى تيهرت وأسس بها دولة إباضية، والتحقت به جموع أهل القيروان وهذا دليل على براءة الإباضية من أفعال الصفرية في القيروان.

2. 2. الإباضية في القيروان وإرهاصات الاستقرار

توالت الأحداث السياسية بعد نشوب حركات المعارضة ضد الأمويين في عموم إفريقية والمغربين الأدنى والأوسط، وعلينا ذكر أهم تلك الحركات والثورات خاصة منها ما كانت من جانب أتباع المذهب الإباضي أو أهل الدعوة والاستقامة، وكانت أغلبها في أواخر الحكم الأموي، فقد ثار عبد الله بن مسعود التجيبي سنة126ه ضد والي القيروان عبد الرحمن بن حبيب الذي اغتصبها، ثم ثورة الحارث بن تليد الحضرمي وعبد الجبار بن قيس المرادي سنة 130ه (ابن خلدون، 1983، ص 146/6)، والذين ثاروا إثر مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي، وثورتهما انتهت بمقتلهما سنة131ه، وبعد ذلك كانت ثورة إسماعيل بن زياد النفوسي سنة132ه، والتي انتهت بمقتله وانهزامه في نفس السنة(**الرقيق**، 1968، **ص ص** 70ـ75)، من تلك الثورات يتبين مدى شدة وغيرة الإباضية على مذهبهم، وما كان استعمالهم للقوة إلا بعد استنفاذ جميع الطرق السلمية، التي لم تؤت أكلها، ورغم عددهم وعدتهم القليلة إلا أنهم خاضوا معارك ضارية، آملين في الشهادة أو النصر وتحقيق العدل في المنطقة (**خديجة**، 2012، **ص** 98).

أما الجانب الصفري فقد كانت له أيضا ثورات عنيفة شكّلت خطرا على ولاة بني العباس بالمغرب، أهمّها ما قامت به قبيلة ورفجومة الصفرية في القيروان بقيادة عاصم بن جميل سنة138ه، فأخرجوا منها واليها حبيب بن عبد الرحمان بن حبيب الذي التجأ إلى جبال الأوراس، عندئذ خلا الجو للصفرية في القيروان فعاثوا فيها فسادا (**زيتون**، 1988، **ص** 234)، ولا تختلف المصادر الإباضية وغيرها في تصوير مناكرهم؛ بل إن الكتابات الإباضية تعزو قيام ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني إلى تلك الأعمال الشنيعة التي قامت بها ورفجومة الصفرية، فخرج إليهم "غضبا لله ولدينه" (**الشماخي**، 2009، **ص** 131/1)، وكان أبو الخطاب قد بويع بالإمامة سنة 140هـ والذي بسط نفوذه على جربة وطرابلس وقابس سنة141هـ (**الشماخي**، 2009، **ص** 116/1)، ولا اختلاف بين المؤرخين في ما ذهب اليه الصفرية من غلو ومعتقدات بعيدة عن الشرع الحنيف، مما أسهم في زواله باكرا من المنطقة.

واتفق أن رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة له فرأى ناسا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع، فترك الإباضي حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فأعلمه بذلك، فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "لبيك اللهم لبيك" فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان وقصدوا طرابلس الغرب، وسير إليهم عبد الملك مقدم ورفجومة جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال (**ابن الأثير**، 1987، **ص** 314/5)، أخذ أبو الخطاب يُعد العدة للقضاء على ثورة ورفجومة، فحاصرها حصارا شديدا وانسحب بجنده ليلا إلى رقادة، فتظاهر بالهزيمة ليوهم العدو بانسحابه، فاعتقدت ورفجومة أنه سئم الحصار وقرر الانسحاب، فما إن وطدت أقدامهم رقادة، إلا وقد فوجؤوا لكمائنه، ودار بينهم قتال شديد انتصر فيه أبو الخطاب، وبذلك دخل أبو الخطاب القيروان سنة141هـ، وولى عليها عبد الرحمان بن رستم عاملا عليها، ثم عاد إلى طرابلس (**ابن الأثير**، 1987، **ص** 317/5)، أما الصفرية فقد التجؤوا إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى التي اتخذوها عاصمة لدولتهم المدرارية.

واستمر حكم الإباضية للقيروان إلى أن هزمهم محمد بن الأشعث سنة144ه، وقد عاودوا محاولة الاستيلاء عليها مرة ثانية أيام ولاية عمر بن حفص سنة154ه، بقيادة أبي حاتم يعقوب بن حبيب، فاستطاعوا تحقيق ذلك لمدة وجيزة إلى أن أخرجهم منها يزيد بن حاتم (**زيتون**، 1988، **ص** 235).

يعتبر دخول أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح للقيروان أهم إنجاز حققه لدولته، والتي تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله، كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين من قبل المسلمين كافة، نتيجة لما قام به بالقيروان، وما حققه من القضاء على فساد الصفرية من قبيلة ورفجومة وقد اشتهر عنه تدينه وورعه وصلاح حكمه، وبذلك صارت القيروان تحت حكم الإباضية في عهده.

وهنا نقف عند شخصية عبد الرحمن بن رستم فقد ظهر بالقيروان مع قبيلتي زناتة وهوارة الطرابلسيتان اللتان كانتا على المذهب الإباضي، والذين انتزعوا القيروان من قبيلة ورفجومة بقيادة أبي الخطاب وأصبح عبد الرحمن حاكما للقيروان بعد طرد ورفجومة منها، لكن الأمر لم يدم طويلا إذ أنفذت الخلافة العباسية جيشا بقيادة عاملها على مصر محمد بن الأشعث، استطاع القضاء على أبي الخطاب في تاورغا القريبة من طرابلس سنة144ه، وواصلت تحركها نحو القيروان لتخليصها من واليها عبد الرحمن بن رستم، فالتجأ إلى تيهرت بالمغرب الأوسط مؤسسا دولته فيها.

1.2.2. التموقع الإباضي في القيروان

إن للعلاقات العلمية دور كبير في إثراء الحياة الفكرية، إذ لا يمكن لأية دولة مهما كانت مستقلة بفكر معين لديها دون أن تتأثر بالفكر المحيط بها أو تؤثر فيه، وهذا ما لمسناه في علاقات الإباضية بأقطار العالم الإسلامي المختلفة سواء كانت بلاد المغرب والأندلس والسودان أو بلاد المشرق عامة (الدرجيني، 2007، ص ص 34-35)، إذ نجد أن الإباضية تركوا آثارا واضحة في الحياة الثقافية ببلاد المغرب فلهم آراء عقدية خاصة انفردوا بها عن سائر المذاهب الإسلامية الوافدة إلى المغرب، وكانت هذه الآراء تمثل في جوهرها عودة إلى تعاليم الإسلام الصحيحة (**محمود**، 1985، **ص** 292).

عرفت مدينة القيروان وأحوازها تنوعا عرقيا شمل البربر والعرب من قريش ومضر وربيعة وقحطان، ومن العجم من الفرس ومن أهل خراسان (**رضوان**، 1991، **ص** 113)، ومن وردها مع عمال بني هاشم من الجند، والصقالبة والسودانيين إلى جانب الذميين من الروم (**بن بوزيد**، 2019، **ص** 34)، وقد تعايش الجميع في جو من الاحترام والمعاملة الحسنة والتسامح (**Prevost, 2015, p. 57**)، يقول الباحث نجم الدين الهنتاتي: "انطلاقا من المشرق الإسلامي دخل إلى إفريقية الاتجاه (الخارجي) بمذهبيه الصفري والإباضي ، والاتجاه الشيعي لاسيما المذهب الإسماعيلي، كما دخل إليها الإرجاء والاعتزال، إلى جانب الاتجاه السني بمذاهبه المتنوعة من أوزاعية وحنفية ومالكية وشافعية وأشعرية وغيرها" (**الهنتاتي**، 2000، **ص** 176)، بذلك يكون وجود المذهبين الإباضي والصفري سابق لبقية المذاهب في إفريقية والمغرب عموما، كما أن التنافس والصراعات ما انفكت قائمة بينها من أجل توسيع دائرة التأثير على حساب المذاهب الأخرى، بمختلف الوسائل والطرق، ولعل النظرة السلبية للإباضية على أساس أنهم خوارج، أججت من التعصب المذهبي لدى بقية المذاهب ضدهم، قبل أن تظهر العصبية القبلية بين العرب والبربر التي وجدت التربة مهيأة لذلك.

ويعود اهتمام الناس والدعاة بالقيروان أو إفريقية التي أسماها الفقهاء رابعة الثلاثة: مكة والمدينة وبيت المقدس، بالنظر إلى دورها البارز في ترسيخ وإشعاع الإسلام في أرجاء واسعة من بلاد المغرب والسودان ثم الاندلس، وقد نزلها وأقام بها كبار الصحابة ممن شهد بدرًا وبايع بيعة الرضوان، ومن التابعين، وقبورهم بها معلومة (**الدباغ**، 1968، **ص** 8).

ولم تكن القيروان متأثرة بمذهب واحد، فقد كانت تتقلب حسب الدعاة والاتجاهات الوافدة إليه، فكانت إباضية أو صفرية إذا كان الداعي من الذين فرّوا من الاضطهاد الأموي بالشرق، وقد لقي آذانا صاغية وقبولا واسعا لدى البربر خاصة منهم الذين تمكنوا من التمييز بين تعاليم الإسلام من جهة، وممارسات ولاة الأمويين، وكانت سنية موالية للأمويين إذا كان الداعي سنيا مثل أعضاء بعثة الخليفة عمر بن عبد العزيز من جهة أخرى (**الهنتاتي**، 2000، **ص** 177)، التي كان لها آثارا هامّة في القرآن الكريم وتفسيره، والحديث النبويّ، وفي نشر السنّة العمليّة والاعتقاديّة الصّحيحة، وتركيز أحكام الإسلام بين البربر.

كما أسهم الأمراء الأغالبة في بناء المكتبات واقتناء الكتب من المشرق بخاصة (**رضوان**، 1991، **ص** 161)، وكانوا يرسلون لأجل ذلك بعثات من العلماء ومن تلك البعثات: بعثة إبراهيم الثاني(261-289ه)، وبعثة زيادة الله الثالث(290-296ه) (**بن بوزيد**، 2019، **ص** 32).

2.2.2. طلبة العلم بين القيروان وتيهرت

من المعلوم أن الإباضية قد طُردوا مرارا من القيروان قبل تأسيس الإمامة الرستمية بتيهرت، وكانت أعدادا كبيرة منهم تسكن القيروان خاصة من أهل نفوسة لاقتراب جبلهم من القيروان (**بحاز**، 2015، **ص** 536)، ولعل وجود القيروانيين بتيهرت بمسجدهم الخاص بهم ورحبتهم، قد أسهموا في الحياة الفكرية الرستمية، ودخلوا في مناظرات مع علماء الإباضية من الكوفة والبصرة، إذ لا يستبعد أن يكونوا على المذهب المالكي، لأن القيروان آنذاك كانت عاصمة الفقه المالكي. فلم تذكر المصادر تعرضهم للطرد والاضطهاد من قبل السلطة الرستمية مثلما تعرّض له إباضية القيروان من قبل سلطة الأغالبة، فقد جلس طلبة القيروان جنبا إلى جنب مع طلبة تيهرت في حلقات

جمعتهم بمخاليفهم في المذهب وقراءتهم عليهم بعض العلوم، كما جلس بعض المخالفين عند الإباضيين لدراسة بعض العلوم عنهم (**الصغير**، 1986، **صفحة** 96) ولعل قائمة التلاميذ الإباضيين ممن انتقل إلى القيروان طويلة منذ بروزها كمنارة علمية، تضاهي كلا من فاس الإدريسية وقرطبة الأندلسية، وأغلب من نزل القيروان من الإباضية كان لغرض تعلم العربية وآدابها في ربوع العرب (**بحاز**، 2015، **ص** 537)، كما كان نزولهم وسكناهم في عموم إفريقية والساحل، حيث كان انتشارهم فيها، يزورهم المشايخ من حين لآخر، للوقوف على أحوالهم، وترسيخ مبادئ المذهب في نفوسهم، خاصة وأنهم يعيشون جنبا إلى جنب مع أتباع المذاهب الأخرى.

3. مشايخ الإباضية في حلق العلم القيروانية

وردت في كتب السير والطبقات الإباضية بعضٌ من أسماء المشايخ الذين نزلوا القيروان، ودرسوا بها أو درّسوا فيها، لكن هذه المصادر لم تعرّف بهم تعريفا كاملا، مثلها مثل باقي كتب السير والتراجم والطبقات، فلم تذكر أسماءهم كاملة أو مناصبهم التي تبوؤوها في حلق العلم بالقيروان (**مطهري**، 2015، **ص** 479)، وما هي إلا إشارات لهم، سواء منهم من عاش بالقيروان أو في ضواحيها القريبة، وقد حاولت البحث عنهم وعن تراجمهم في بطون كتب الطبقات والتراجم، فلم أظفر سوى بالقليل، إذ غالبا ما تنقص الترجمة لهم بعض التفاصيل الهامة بدءًا بالاسم الكامل، فلا نكاد نجد اسما كاملا لأحدهم، وإن وجدنا الاسم فلا نجد الكنية أو لا نجد له اسم أب أو اسم شهرة، أو قبيلة ينتسب إليها، ضف إلى ذلك التشابه في الكنى والألقاب أحيانا، كما أن البعض منهم نجهل فترة حياته وتاريخ وفاته، وحاولت حصرهم مع مشايخ عصرهم حسب ما ورد عند ابن سلام مصدرنا الأول، كما أن سطورا قليلة تورد أجزاء من صفاتهم ومناقبهم وحياتهم، والملاحظ عليهم أنهم من البربر ومن العرب، ومن مختلف القبائل المستوطنة للقيروان وفحوصها وأرباضها، انفرد ابن سلام بذكر أغلبهم في شرائعه، ويعودون إلى مختلف فترات العصر الوسيط، ومن هؤلاء المذكورين:

● **سلمة بن سعد الحضرمي اليمني(حي سنة135ه):**

عالم عامل وداعية، وفقيه إباضي من البصرة، صنفه الدرجيني في طبقة تابعي التابعين، أخذ العلم عن جابر بن زيد وغيره، هو أول من جاء يطلب مذهب الإباضية بالقيروان (مجموعة مؤلفين، 1999، ص 392/3)، وكان يقول: "وددت لو أن لو ظهر هذا الأمر من أول النهار إلى آخره فلا أبالي إن مت بعد ذلك"، وقد اشترك في التدريس بجامع عقبة بن نافع إلى جانب عكرمة مولى بن عباس في إفريقية (**الشماخي**، 2009، **ص** 245/2).

● **عبد الرحمن بن رستم الفارسي(ت171ه):**

ولد بالعراق، في العقد الأول من القرن2ه، تزوجت أمه رجلا من أهل القيروان بعد وفاة والده وهما في الحجاز، ونشأ عبد الرحمن بالقيروان، فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وأفصح، انتقل مع حملة العلم إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة، وعين واليا وقاضيا على القيروان أيام الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وأسس الدولة الرستمية ببلاد المغرب (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص ص** 515/3ـ519).

● **أبو الوليد عبد الملك المهري بن قطن وأخوه إبراهيم(ق2ه)**

هما من رعايا الدولة الرستمية ومن مواليدها، كان إبراهيم نحويا، إلا أنه لم يسمع منه إلا القليل من الناس، بينما كان عبد الملك "شيخ أهل اللغة والعربية والنحو والرواية" ورئيسهم وعميدهم، والمقدم في عهده وزمانه، له كتب منها: اشتقاق الأسماء، وتفسير مغازي الواقدي، والألفاظ (**الزبيدي**، 1984، **ص ص** 249ـ250)، بعد أن لم يكن شيئا يذكر، فاستطاع البروز أمام أخيه إبراهيم، وكانت وفاته في سنة 253ه، ومسكنه بالقرب من باب سوق الأحد في إفريقية الأغلبية (**بحاز**، 2015، **ص** 352).

● **أبو عبد الله الفضل(ق2ه)**

من سكان غربي مدينة القيروان في وسط سوق الأحد حارة ابن محرز معروف بدعوة المسلمين، وله إخوان في الله من البربر من هوارة؛ يخرج إليهم بمنزل أبي الأزهر كل سنة من غلة الزرع إلى الغلة القابلة الأخرى، فيكون عندهم فيجتمعون إليه ويتعلمون منه العلم، ويجمعون له إخوانه في الله من هوارة وزناتة يكونون بالسبخة بالمرج، وهم كلهم من أهل دعوة المسلمين، كورة قريبة من سبع منازل ومساجد عدة فتكون عنده، يجمع له إخوانه ما يكفيه من نفقة القمح لعياله، وعلف دابته من الشعير وزيت مصباحه، وقطن لباسه ولباس عياله من غلة السنة إلى الأخرى، وهو عالم فقيه مفت بالقيروان (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 157).

● **سعيد الحدّاي(ق2ه)**

"من عرب الساحل في قبلة المرج وله حوانيت عدة بالقيروان سماط قبلة المسجد الكبير، وأبو سعيد هو الذي أدحض حجة[فراغ] بالقيروان فقتلهم أبو جعفر بن خزر وهم المشركون عابدو الكبش" (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 158)، هكذا عرّف به ابن سلام في شرائعه، لكن بالمقابل هناك شيخا من شيوخ المالكية يحمل اسما شبيها وهو أبو عثمان سعيد بن محمد الحداد(ت302ه)، ولا يبدو أنه هو، فالفترة بين ابن سلام وأبي عثمان تنيف عن ثلاثة عقود.

● **أبو الغدير حارث مهراني(ق2ه):**

رجل فقيه مفت كبير معروف بدعوة المسلمين، وله منزل بالسبخة منزل أبي الأزهر الهواري، وهو قبلة سوسة غربي مدينة القيروان (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 158).

● **سليمان بن جاس(ق2ه)**

ومنزله بقلوط، وهو حوزة شرقي القيروان غربي سوسة بين المهدية والمنستير، وهو رجل فقيه من علماء أصحابنا (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 158).

● **يوسف الفتاح(ت260ه)**

وهو معلمهم للعلم توفي ستين ومائتين وهو رجل بصير بالفقه، تعلم العلم بتيهرت وهم نحو خمسمائة رجل في حوزة واحدة (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 158).

● **لواب بن سلام النفوسي(ت273ه)**

من أوائل مؤرخي الإباضية في بلاد المغرب، سكن مدة بتوزر (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 42)، وكثرة تنقلاته، جعلته يشغّل في مزارعه وحقوله من العبيد من يقوم على شؤون ممتلكاته في غيبته الطويلة، وحين استقراره بعيدًا عن الجبل في القيروان (بحّاز، 2012، ص 162)، لم يتبيّن في سطور كتاب ابن سلام زمان ومكان كتابة ابن سلام لشرائعه، فالباحث إبراهيم بحاز قد أشار إلى أنه قد كتبه في القيروان التي اسقر بها مدة لطلب العلم (**صالح**، 2022، **ص** 45).

● **أبو حبيب(ق3ه)**

ومنزله بقفصة الساحل شرقي القيروان في قبلة سوسة وهو رجل عالم فقيه (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 159).

● **أبو عمر حفصون النفوسي(ق3ه)**

تلقى العلم على يد مشايخ زمانه بالقيروان، ومنزله بباطن المرج في عدد من نفوسة نحو خمس مائة رجل أو أكثر، وهو رجل فقيه عالم فارض ناقد (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 159).

● **العسيري(ق3ه)**

هو "من قبيلة هوارة رجل عالم فقيه بصير واسع العلم، "اشترى منزلا بموضع يقال له[فراغ]ممن[فراغ] بطون غربي سوسة شرقي القطف وهو وحده مكتتم يسر الخير[كذا]، ومنازله منزل بفحص القيروان، فأوذي بنزول الموالي عليه، فترحل واشترى الجهل ذلك المنزل" (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 159).

● **السمح بن عبد الجبار(ق3ه)**

هو من أعلام قبيلة هوارة التي سكنت الأوراس، فقيه عالم، لم تترجم له المصادر شيئا من حياته (**ابن سلاّم**، 1985، **ص** 196).

● **العنبري(ق3ه)**

هكذا ورد نسبا دون كنية أو اسم شخصي له، هو أحد علماء الإباضية بإفريقية الأغلبية، كان من المناظرين عن الإباضية ضد فرق الخلاف، بمحضر الأمير الأغلبي زيادة الله الأول (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص** 3/673).

● **أبو محمد عبد الله بن محمد المكفوف النحوي(ت308ه)**

أصله من سرت، قال عنه الزبيدي: "كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب والشعر، وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها أدرك أبا الوليد عبد الملك بن قطن المهري وأخذ عنه....، وصحب أبا القاسم عثمان ابن الوزان النحوي، وله كتب كثيرة أملاها في اللغة العربية (**المطوّع**، 1985، **ص ص** 40-41)، وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيها لما بين فيه وقرّب وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب" (**الزبيدي**، 1984، **ص ص** 257-259)، وتوفي المكفوف سنة 308ه، وينسب إلى القيروان ولا شك أنه بها تعلّم وعلّم (**بحاز**، 2015، **ص** 353).

والمعلومات قليلة أو نادرة عن مشايخ إباضية القيروان، فلا وجود لذكرهم في مختلف المصادر التي تناولت تلك الفترة، من كتب التراجم والأعلام، ولم يذكرهم ابن سلام سوى ببعض التفاصيل التي لا يمكن أن تقدم لنا صورة واضحة عن حياتهم الذاتية والعلمية في القيروان، التي منها يمكن معرفة الكثير عنهم، وعن الجانب العلمي والثقافي الإباضي في عاصمة الأغالبة، والملاحظ أن أغلبهم مذكور إما بكنيته أو اسمه أو كليهما معا، ولعلهم قد اشتهروا في زمن ابن سلام.

أما من المشايخ الذين كان لهم حضور بالقيروان وأحوازها بعد القرن الثالث الهجري، فقد ذكرتهم المصادر الإباضية، إما كونهم زاروا القيروان كطلبة علم، أو كانت لهم زيارة إليها لمختلف الشؤون الأخرى، ولم يدم بقاؤهم فيها طويلا ومنهم:

● **أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني الحامَي(ت358ه)**

من بني يتيجرت بالحامّة، أخذ علومه عن الشيخ سحنون بن أيوب، وعن أبي الربيع سليمان بن زرقون، عظمت منزلته لدى الناس والأمراء خاصة منهم المعز لدين الله الفاطمي، الذي قرّبه لبلاطه، لبلوغه درجة الاجتهاد، وكان إذا دخل مدينة القيروان؛ قدم عليه بعض سكانها من المخالفين، ليسألوه في فنون العلم (**الورجلاني**، 1981، **ص** 1/173)، مات شهيدا بسبب وشاية من حاشية المعزّ (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص ص** 4/981-982).

● **أبو خزر يغلا بن زلتاف الوسياني(ت380ه)**

من أبناء الحامّة، ومن كبار علماء الإباضية المشهورين في علم الكلام، أخذ العلم رفقة زميله أبي القاسم يزيد بن مخلد عن سحنون بن أيوب وأبي الربيع سليمان بن زرقون، وكانت له حلقة علم ينتقل بها بين أحياء مزاتة، كما كان له نشاط سياسي وعسكري إذ قاد ثورة ضد جور العبيديين انتقاما لمقتل أبي القاسم، لكنها باءت بالفشل، ورافق المعز إلى مصر سنة 362ه، فكانت له مجالس مناظرات مع العلماء (**الورجلاني**، 1981، **ص** 1/212).

● **أبو نوح سعيد بن زنغيل(ق4ه)**

نشأ وسكن بالجريد، أخذ علومه عن أبي القاسم يزيد وعن أبي خزر يغلا، وهو شيخ الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي واضع نظام العزّابة، كانت له مناظرات مع المعتزلة، قال فيه الخليفة أبو تميم المعز بن باديس "أبو سعيد فتى مجادل" (**الورجلاني**، 1981، **ص** 1/211)، اختفى في ورجلان لما علم بنية المعز أخذه معه إلى مصر (**مجموعة مؤلفين**، 1999،

ص ص 3/365-366).

● **أبو محمد ويسلان بن يعقوب الدجمي المزاتي(ق4ه)**

أخذ علمه في كبره عن أبي القاسم يزيد، وحبسه رجال المعزّ لأنه صاحب أبي القاسم ثم أطلقوا سراحه، لشكوى من المساجين بسبب قراءته الدائمة للقرآن بصوت جهوري (**الورجلاني**، 1981، **ص** 2/295).

● **أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي(ت440ه)**

أحد أقطاب الإباضية في المغرب، ومن أبرز المصلحين توجه من عند أبي زكرياء إلى القيروان يتعلم الإعراب والنحو (**الوسياني**، 2009، **ص** 1/359)، على يد أبي نوح سعيد بن زنغيل، وله مواقف ومؤلفات عديدة، وهو واضع نظام العزابة المشهور (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص ص** 4/772-778).

● **عبد الغني الوسلاتي(ت440ه)**

فقيه إباضي من جبل وسلات، ضريحه بكاباو بوادي كراين في جبل نفوسة (**الشماخي**، 2009، **ص** 3/965).

● **المنصور بن عبد الغني الوسلاتي المزاتي(ق5ه):**

من مشايخ الإباضية بوَسلات، الجبل المشرف على القيروان من جهة الغرب، عدّته المصادر من المشايخ، وقالت عنه: هو قرين أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر في العلم وفي السنّ، أخذ العلم مثل قرينه عن أبي عبد الله محمد بن بكر وغيره (**ليفيتسكي**، 2000، **ص** 158).

● **أبو زكرياء يحيى بن المنصور الوسلاتي(ق5ه)**

هو من جبل وسلات، وعاش في أجلو في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وأخذ العلم عن أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي **(Prevost, 2015, p. 75)**.

● **أبو محمد ماكسن بن الخير الوسياني الجرامي(ت491ه)**

من مواليد القيروان، فقد بصره وهو ابن سبع سنين، أخذ جلّ علومه عن أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، وكان كثير الأسفار للدعوة وإصلاح شؤون الأمة، وأغلب تحركاته كانت بين ورجلان وأسوف والجريد وطرابلس (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص ص** 4/739-740).

● **أبو عمار عبد الكافي التناوتي(ت570ه)**

عالم شهير من علماء عصره، أتم علومه الأولى بمسقط رأسه ثم انتقل إلى القيروان وتونس، وعاد بعد ذلك مدرسا ومتصدرا لحلق العلم في ورجلان، فقصده تلاميذ عديدين، وترك مؤلفات جمة منها كتاب السير. (**صالح**، 2022، **ص** 220)

● **أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي(ت766ه)** (**الدباغ**، 1968، **ص** 1/127)

كان رجلا صالحا، فاضلا، سخيا، مسارعا لقضاء حوائج الناس عند العرب والقوّاد وغيرها؛ واشتهر في زمانه شهرة تامة. كان لما عظم حاله، وكبر جاهه، حسد وعمل فيه وفي صاحبه الشيخ أبي حفص عمر بن بركات الكناني، رسم بالشهادة العادلة بأنهما زكراويا المذهب، خارجان عن اعتقاد أهل السنة، وبعث به لتونس لقاضي الجماعة بها أبي علي بن عبد الرفيع، فرفعه للخليفة أبي إسحاق إبراهيم، وكان الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين بين يديه كأنه هو السلطان فوقف في المسألة، وبعث له ولصاحبه بالوصول، وتوفي بالقيروان سنة 766 ه، ودفن بزاويته. وقبره مزار (**الدباغ**، 1968، **ص** 5/23).

● **أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي(ت928ه):**

من علماء يفرن بجبل نفوسة، انتقل إلى القيروان وتلقى فيها العلم على يد الشيخ أبي عبد الله محمد البيدموري، بعد نهله للعلم في كل من تطاوين وتلالت بجبل دُمّر، له مصنفات عدة أشهرها: كتاب السير، توفي بجربة (**مجموعة مؤلفين**، 1999، **ص ص** 2/89-90).

ولعل قائمة المشايخ الإباضيين ممن زاروا أو استقروا بالقيروان بعد القرن الثالث الهجري أطول من ذلك بكثير، فأغلبهم قد وطئت قدمه فيها للتعلم على كبار مشايخها، إذ كانت قبلة لطلبة الدراسات العليا من مختلف الأقطار، ولعل حدة التوتر والاختلاف المذهبي قد خفّت، بل وقد اتخذت مجالس للمناظرة بين مختلف الطوائف في مختلف الجوانب العقدية، كما كان تبادل المسائل والنوازل جانب شائع بينهم، فالكل يدلي بدلوه في ذلك، وحسبنا ما أشرنا إليه ممن اشتهر منهم في كتب السير والطبقات الإباضية.

عدد المشايخ المذكورين هو 26 شيخا، وما يلاحظ أن غالبيتهم هم الذين كان حضورهم بالقيروان في القرن الثاني والثالث الهجريين بـ: 13 شيخا، ثم يتناقص العدد تناقصا طرديا مع القرون، ويُعزى ذلك إلى بروز القيروان كأول مدرسة علمية بالمغرب، ثم تلتها عاصمة الرستميين تيهرت والتي بدأ شعاعها يظهر طوال القرن الثالث الهجري، أما القرنين الرابع والخامس للهجرة فكان عدد العلماء من الاباضية بها قليل ومجموعهم هو عشرة، ثم يحدث توقف فجائي للحضور الإباضي بالقيروان منذ القرن السادس الهجري بسبب الأحداث السياسية، مما جعل المشايخ يحجمون عن ارتياد القيروان، ضف إلى ذلك تأسيس نظام العزابة الذي جاء بديلا كمدرسة إباضية قائمة بذاتها، تبنتها مختلف مناطق انتشار الإباضية في مناطق جنوب إفريقية من جبل نفوسة وجربة إلى بلاد الجريد وأسوف وأريغ وورجلان ومزاب(انظر الخريطة في الملحق)، فظهر بذلك تقسيم جغرافي جديد بين شمال مالكي في أغلبه وجنوب إباضي في عمومه، وكل مهتم بعلمائه وطلبته، فقلّت بذلك زيارات طلبة العلم الإباضيين إلى القيروان لوجود بديل لها في نفوسة وجربة وورجلان، وحتى اللغة العربية التي كانوا يقصدون القيروان لتعلمها صارت لغة العلم والكتابة

والخطابة في مدارس الاباضية.

4. مشايخ الإباضية في القيروان تأثير وتأثر

كانت للإباضية حلق علم نشيطة بجامع عقبة بن نافع في القيروان، إذ كانوا يدرّسون مذهبهم ويعقدون الحلقات للنقاش حول مبادئه في المسجد الجامع، وقد أدى التسامح المذهبي فيها إلى كثرة مجالس المناظرة بين الإباضية ومختلف معتنقي المذاهب الأخرى، في جو من الحرية والتفاهم (**مطهري**، 2015، **ص** 757)، وأنهم مع ركونهم إلى عدم طلب السلطة أو تطبيق مبادئهم التي أقاموها مثلا في تيهرت؛ اكتفوا بتعليم ونشر مبادئهم في القيروان، سعيا منهم للحفاظ على مذهبهم من الزوال في القيروان وضواحيها.

وبما أنهم يعيشون في ظل دولة لا تذهب مذهبهم، بل وتبث أعينها بينهم، فقد كانوا عرضة للاضطهاد بسبب تأثيرهم في العامة، إلى أن تولى سحنون بن سعيد المالكي(ت256ه) سلطة القضاء، وقام بتفريق حلقهم من المسجد ما بين سنتي 234-240ه، كما فرّق حلق الدرس الصفرية والمعتزلة والقدرية وغيرها، التي صُنّفت ضمن فصيلة أهل الأهواء والبدع والزنادقة والمنافقين المتهمين بالخروج؛ بل وحتى المرتدين والكفار حسب بعض الفتاوى (**عمارة**، 2020، **ص** 276)، هذه الحلق التي عرفت المناظرات بينها في مسائل الكلام والعقيدة، بل إنه أجبر بعض شيوخها على إعلان توبتهم على المنبر (**أبو العرب**، 1968، **ص** 184)، لكنه لم يستطع القضاء تماما على المذهب وأتباعه، فقد لجؤوا إلى أماكن أخرى في القيروان غير المسجد الجامع (**زيتون**، 1988، **ص** 354)، وقد أسهمت تلك المناظرات التي كانت أغلبها في مسائل العقيدة والكلام، في تحريك عجلة الثقافة الفكرية وتنشيطها بين الفرق المختلفة وغالبا ما تنتهي بإفحام الطرف أو الأطراف الأخرى بمحضر الخليفة، مما يجعل العلماء في بحث دائم عن الأدلة والبراهين لإثبات حججهم وإقناع الخصوم بها.

لم تورد لنا المصادر مؤلفات ومدونات ألفها هؤلاء مشايخ الإباضية في القيروان سوى القليل منها والمذكورة آنفا، ولعل أغلبها في عداد المفقود، أو مما أتى عليه التخريب والحرق، عن قصد أو عن غير قصد، أو بفتاوى أغلبية في وقتها، ومعروف عن الإباضية إنتاجهم الغزير في مختلف العلوم النقلية منها والعقلية، ولعل الأيام كفيلة بإبرازها مستقبلا في مختلف دور المكتبات والأرشيف التونسي أو خارجه.

5. خاتمة

يتضح لنا بعد هذه اللمحة التاريخية أن المذهب الإباضي كان له وجود بارز إلى جانب المذهب الصفري في القيروان في عهد مبكر قبل حلول المذاهب السّنية، ومردّ ذلك أسباب سياسية وأمنية محضة، فبُعد إفريقية عن مركز الخلافة الأموية في دمشق والعباسية في بغداد جعل منها أرضا خصبة لانتشاره انتشارا واسعا بين البربر وغيرهم، وقد عرفت مساجد القيروان ومدارسها حضورا إباضيا جليا، تمثّل في طلبة العلم الذين وفدوا عليها من إفريقية والمغرب الأوسط وجربة وجبل نفوسة، والدافع الأساسي لهم هو تعلم اللغة العربية وآدابها، تلك اللغة التي افتقدوها في مواطنهم في بدايات انتشار الإسلام في بلاد المغرب، فكانت اللغة البربرية هي لسانهم الأم، كما أن تلك المساجد والمدارس القيروانية شهدت حضور كبار مشايخ الإباضية الذين درسوا ثم درّسوا بها في حلق العلم المختلفة وفي فنون العلم العقلية والنقلية، ولا أدلّ على ذلك تلك المناظرات التي كانت تجري بين الإباضية ومختلف المذاهب، في حضرة السلطة الأغلبية والفاطمية، رغم ما كان يعانيه أتباع المذهب عامتهم وخاصتهم من جور وظلم الحكام.

تضاءل حجم الحضور الإباضي كثيرا في القيروان منذ نهاية القرن الخامس الهجري، بسبب ظهور نظام العزابة الذي استطاع هيكلة المجتمع الإباضي دينيا وعلميا واجتماعيا، فاستغنى طلبة العلم عن الشمال، واستبدلوه بالجنوب، إذ وجدوا مختلف العلوم التي تتوق إليها نفوسهم في مساجد ومدارس جربة ونفوسة وورجلان ومزاب.

لم تترك لنا المصادر أسماء مشايخ الإباضية الذين تركوا بصمتهم في عاصمة بني الأغلب سوى ما ذكر عند ابن سلام، وهي لا تعدو إلا أن تكون أسماء مجهولة تراجمها، فضلا عن مؤلفاتها، جاء ذكرها مقتضبا، أما في المصادر غير الإباضية؛ فلا أثر لها بسبب صفة الخوارج التي لازمتهم وجنت عليهم قديما وحديثا. لذا ندعو الباحثين -أساتذة وطلبة ومخابر بحث-إلى دراسة المذهب الإباضي دراسة علمية أكاديمية من خلال حضوره في القيروان، وعلاقته بالسلطة القائمة وبالمذاهب الأخرى، ودور أتباعه العلمي والثقافي وحتى مختلف الجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

6. الملاحق

- موقع القيروان بين التجمعات الإباضية في بلاد المغرب

المصدر: الزرويل صالح: اتجاهات الكتابة التاريخية عند مؤرخي الإباضية في بلاد المغرب ما بين القرنين(3-10هـ/9-16م)،إشراف أ. د. إبراهيم بحاز، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: جامعة غرداية، 2022، ص512.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

ـ المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

- ابن الصغير. (1986). أخبار الأئمة الرستميين (المجلد 1). الجزائر: المطبوعات الجميلة.

- أبو إسحاق القيرواني الرقيق. (1968). تاريخ إفريقية والمغرب. تونس: مطبعة الوسط.

- أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي. (1994). كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم (المجلد 2). بيروت: دار الغرب الاسلامي.

- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي. (1984). طبقات النحويين واللغويين (المجلد 2). القاهرة: دار المعارف.

- أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير. (1987). الكامل في التاريخ (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

- أبو الربيع سليمان بن حسان الوسياني. (2009). سير الوسياني. مسقط، عُمان: وزارة التراث والثقافة.

- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني. (1981). كتاب السيرة وأخبار الأئمة. تونس: الدار التونسية للنشر.

- أبو زيد عبد الرحمن الدباغ. (1968). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (المجلد 2). مصر: مكتبة الخانجي.

- أبو العباس أحمد الدرجيني. (2007). طبقات المشايخ بالمغرب (المجلد 2). غرداية: المطبعة العربية.

- أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد الشماخي. (2009). كتاب السير. تونس: دار المدار الإسلامي.

- أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف الإدريسي. (2002). كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

- أبو عبيد البكري. (بلا تاريخ). كتاب المسالك والممالك.

- الإباضي ابن سلاّم. (1985). الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية (المجلد 1). (فرنر شفارتس وسالم بن يعقوب) بيروت، لبنان: دار إقرأ.

- عبد الرحمن ابن خلدون. (1983). العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني. (1993). المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. بيروت: دار المسيرة.

- محمد بن أحمد القيرواني أبو العرب. (1968). طبقات علماء إفريقية وتونس. تونس: الدار التونسية للنشر.

المراجع:

-إبراهيم بحاز.(2015). الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)-دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. قسنطينة: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر.

- إبراهيم بحاز. (جانفي 2012). مصادر تاريخ إباضية المغرب في العصور الوسطى. الحياة.

- إسماعيل عبد الرزاق محمود. (1985). الخوارج في بلاد المغرب في منتصف القرن الرابع الهجري (المجلد 2). الدار البيضاء: دار الثقافة.

- تاديوس ليفيتسكي. (2000). المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- حسين مؤنس. (د.ت). فتح العرب للمغرب. مكتبة الثقافة الدينية.

- سليمان الباروني. (1987). الأزهار الرياضية في أيمة وملوك الإباضية. عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة.

- شنعة خديجة. (2012). إعتناق البربر للإسلام. وهران، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهران: جامعة وهران.

- صالح اسماوي. (1987). نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي مزاب. الجزائر: جامعة الجزائر.

- صالح الزرويل. (2022). اتجاهات الكتابة التاريخية عند مؤرخي الإباضية في بلاد المغرب ما بين القرنين(3-10هـ/9-16م). غرداية، كلية العلوم الانسانية والإجتماعية: جامعة غرداية.

- عبد العزيز غوردو. (2011). الفتح الإسلامي لبلاد المغرب (المجلد 2). الكويت: دار ناشري للنشر الإلكتروني.

- علاوة عمارة. (مج2، ع6، جوان 2020). بين الاعتناق والقتل: حال ومآل الإباضيين المغاربة من خلال النصوص الفقهية المالكية. مدارات تاريخية.

- فاطمة عبد القادر رضوان. (1991). مدينة القيروان في عهد الأغالبة(184-296هـ). مكة: جامعة أم القرى.

- فطيمة مطهري. (2015). المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين-دراسة مقارنة-. تلمسان، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية: جامعة أبي بكر بلقايد .

o لخضر بن بوزيد. (جوان 2019). دور العلماء في تشكيل الهوية الدينية والمذهبية لبلاد المغرب خلال القرن الثاني والثالث الهجري. مدارات تاريخية.

- مجموعة مؤلفين. (1999). معجم أعلام الإباضية من ق(1-15هـ) قسم المغرب (المجلد 1). غرداية: المطبعة العربية.

- محمد المختار العبيدي. (1994). الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة (المجلد 1). تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.

- محمد بن عميرة. (1981). دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- محمد محمد زيتون. (1988). القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية (المجلد 1). القاهرة: دار المنار.

- نجم الدين الهنتاتي. (2000). الصراع المذهبي بالقيروان وتفاعله مع واقعها الإقتصادي والاجتماعي والعمراني إلى منتصف القرن5هـ. حوليات الجامعة التونسية.

- يوسف أحمد المطوّع. (1985). نحاة القيروان. حوليات كلية الآداب، 6(25)، صفحة 73.

المصادر الأجنبية

- Prevost, Virginie. (2015). Des communautés Ibadites à Kairouan et dans le Sahil jusqu'au 12 ème siècle. Madrid: Bulle Tuil Leonetti.

ـ كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

صالح الزرويل، (2024)، " الإباضية في القيروان في العصر الوسيط من خلال تراجم بعض أعلامها "، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 16، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص ص: 83-92